(يُرفع الستار عن مسرح عارٍ سوى أربعة كراسٍ خشبية مرتفعة على شكل حلقة. النور مضاءٌ نصفَ إضاءة. رسوم على جدران المسرح تمثل مناظر كوميدية من الحياة.

يدخل أربعة ممثلين واحداً وراء الآخر يرتدون ملابس مهرّجين ويصبغون وجوههم على نحوٍ مضحك. ينحطّون على الكراسي في وقت واحد بحركة كوميدية. يتطلّعون إلى الرسوم على الجدران ثم يتبادلون نظرات ساخرة. يتنحنحون لبضعة دقائق، يُطلق أحدهم قهقهة ممدودة. يعقبه الثاني فالثالث فالرابع، ثم تتوالى قهقهاتهم في صوت واحد. يهيمن على الصالة صمتٌ تام ولا يبرز من المشاهدين ردُّ فعل على القهقهات. تدوم القهقهات حوالي خمس دقائق).

القهقهة

مسرحية في فصل واحد

شاكر خصباك

متفرج: (بلهجة استغراب) إلى متى ستستمر هذه القهقهات؟

متفرج: هل حضرنا إلى هنا لنسمع قهقهة؟

متفرج: يا إخواننا... هل هناك مسرحية أم لا؟!

(ينقطع الممثلون عن قهقهاتهم وكأنهم آلات موقوتة ويلتفتون إلى المشاهدين ويهتفون في صوت واحد)

الممثلون: طبعاً هناك مسرحية.

متفرج: ولكنكم تقهقهون فقط، فمتى تبدأ المسرحية؟

الممثلون: المسرحية بدأتْ.

المتفرج: أتعنون أنكم لن تقولوا شيئاً؟! لن تمثّلوا؟!

الممثلون: نحن نمثل فعلاً.

(يعاود الممثلون قهقهاتهم وهم يتبادلون نظراتهم الساخرة. تمضي دقائق).

متفرج: هذه مسخرة!

متفرج: يا إخواننا... نحن حضرنا لمشاهدة مسرحية لا لنسمع قهقهة..

(ينقطع الممثلون عن قهقهاتهم).

الممثلون: نحن نمثّل فعلاً.

متفرج: وهل تسمّون هذا تمثيلاً؟ (يتلفت المتفرج حواليه كأنه يستشهد بجمهور الصالة) نحن إذن كلّنا ممثلون. كان الأَوْلى أن نبقى في بيوتنا ونضحك بدلاً من أن نتكلّف عناء الحضور إلى هنا.

ممثل: ومن قال إنكم تستطيعون أن تضحكوا؟! نحن نقوم بهذا الدور نيابةً عنكم.

متفرج: الكلّ يستطيع أن يضحك ولا حاجة بنا إلى مَنْ يقوم بذلك نيابة عنّا.

ممثل: أتستطيع أنت إذن أن تضحك مثلنا أيها السيد؟

المتفرج: طبعاً.

ممثل: نحن نتحدّاك أن تفعل ذلك.

المتفرج: المسألة لا تحتاج إلى تحدٍّ.

(يبدو على المتفرج التردّد. صيحات من الصالة «قم يا أخ.. قم يا أخ». ينهض المتفرج ويرتقي منصّةَ المسرح متردداً. الممثلون يتنحّون عن مقاعدهم ويتقهقرون بضعة أمتار ويصطفّون كالتماثيل. يجلس المتفرج ويتنحنح للحظات ثم يطلق ضحكات قصيرة يردفها بقهقهات طويلة منفّرة. صيحات احتجاج من الصالة: «كفى يا أخ... كفى يا أخ». يتحرك الممثلون كالآلات وينتصبون بجواره).

ممثل: أرأيت أيها السيد؟! أنت لا تحسن الضحك.

المتفرج: أؤكد لكم أنني كنت مقتدراً على الضحك.

ممثل: هل تسمح إذن بإخلاء المكان لنا لكي نواصل عملنا؟!

(يعود المتفرج إلى مقعده في الصالة. يستعيد الممثلون مقاعدهم ويتبادلون نظرات ساخرة ثم يندفعون في قهقهات موصولة. تمضي دقائق).

متفرج: (بلهجة عدائية) يا إخواننا.. هل نحن في مسرح محترم أم في سيرك للمهرجين؟!

(تتوقف القهقهات فجأة)

الممثلون: أنت في مسرح محترم أيها السيد.

المتفرج: أهذا مسرح محترم؟ هذا سيرك للمهرجين.

متفرج: كنا نتصور أننا في مسرح جادّ.

الممثلون: أنتم في مسرح جادّ فعلاً.

متفرج: هذه مسخرة... أسوأ من المساخر التي تعرضها المسارح الرخيصة لتستدرّ بها ضحك المشاهدين.

متفرج: (بلهجة عدائية) أنتم غشّاشون... ضحكتم علينا وسرقتم فلوسنا..

ممثل: (بلهجة مجروحة) أنتم تهينوننا أيها السادة.. وهذا ليس عدلاً.

ممثل: نحن نحتجّ.. نحن لا نقبل هذه الإهانات.

ممثل: لماذا تهينوننا؟! ما ذنبنا؟!

متفرج: ذنبكم أنكم تخدعوننا.. وتضحكون علينا وتزعمون أنكم تمثلون مسرحية جادة.

ممثل: هذا هو الدور الذي أملاه علينا المؤلف والمخرج، فما ذنبنا؟

متفرج: ذنبكم أنكم تشاركون في المؤامرة على المشاهدين.

ممثل: ما علاقتنا بما تسميه بـ «المؤامرة»؟ نحن نؤدي عملنا كما أُمرنا به.

المتفرج: المفروض أن ترفضوا المشاركة في هذه التفاهات.

ممثل: الظاهر أنك لم تجرّب البطالة أيها السيد.. إنها مُرّةٌ كالعلقم.

ممثل: نحن أناسٌ كادحون.

متفرج: (وهو يطلق ضحكة هازئة) أنتم كادحون؟

ممثل: نعم، نحن مثلكم نكدح من أجل لقمة العيش.

المتفرج: (بلهجة متهكمة) وكيف ذلك؟ بالضحك على المشاهدين؟! ما أشقّ عملكم.

(تنطلق ضحكات هازئة من الصالة).

ممثل: (بلهجة مجروحة) لا تسخروا من مصاعب مهنتنا أيها السادة.

ممثل: لا تستهينوا بجهدنا أيها السادة.

متفرج: (وهو يطلق ضحكة هازئة) ما كنا نعلم أن هذه القهقهات تقتضيكم هذا الجهد العظيم!

متفرج: هل تتوسطون لي أيها الإخوان لأعمل ممثلاً؟

متفرج: أريد أن أكدح أنا أيضاً مثلكم يا اخوان، فعملي طوال النهار يقصم ظهري.

(صيحات هازئة من الصالة «شغّلونا معكم»)

ممثل: (بلهجة مجروحة) لا تسخروا منا أيها السادة، فأنتم تجهلون مشقّات مهنتنا.

متفرج: وأين المشقّات في مهنتكم؟ هل هناك مشقّة في ترديد ما تلقّنون من كلام كالببغاوات؟

ممثل: أنتم أيها السادة تجهلون مشقّةَ حفظ الممثّل للنصوص وترديدها ليلةً بعد ليلة.

ممثل: وتجهلون مشقة قيام الممثل بتسلية الآخرين وهو مهموم مغموم.

ممثل: وتجهلون مشقة أداء الممثل لدور الغنيّ وهو لا يملك ثمن علاج زوجته المريضة.

ممثل: وتجهلون مشقة تقمّص دور الامبراطور وهو يتعرض في حياته اليومية للمذلة والمهانة.

ممثل: هذا أيها السادة غَيْضٌ من فيض من مشقات مهنتنا.

متفرج: (بتهكم) ولهذا فأنتم مقتدرون على إطلاق القهقهات الصادرة من أعماق قلوب خليّة، بينما عجز زميلنا عن الضحك مثلكم.

ممثل: لكننا أخبرناكم أنها صنعتنا.. مهنتنا التي نأكل منها الخبز..

متفرج: (في هزء) لا تأكلوا حلاوة بعقولنا.

(صفير وصيحات استهزاء من الصالة مع صخب وضجيج).

ممثل: (محاولاً تهدئة جمهور الصالة) أيها السادة.. اسمعوني.. أرجوكم أن تسمعوني

(يخفت الصخب تدريجياً حتى تستعيد الصالة هدوءها).

الممثل: سأحكي لكم أيها السادة هذه الحكاية التي قد تقنعكم بمشقات مهنتها. (يهدأ الضجيج تماماً. يتحدث الممثل بلهجة مؤثرة) كان هناك زميلان يعملان معاً في المسرح.. ممثل وممثلة. وكانا متخصصين في المسرحيات العاطفية... يرتقيان كل مساء خشبة المسرح ويتناجيان. ويوماً بعد يوم استحال الخيالُ واقعاً.. وانبعثتْ عباراتُ الهيام التمثيلية من صميم قلبيهما.. وأخيراً تُوِّجتْ حكايتهما بالنهاية السعيدة، فكان أسعد زواج. وصار تمثيلهما للمسرحيات العاطفية مثالاً للإبداع. ومرّت السنون.. وذات يوم شكت الزوجة من ألم في عمودها الفقري، وَعَزَتْ هذا الألمَ إلى وقوفها الطويل على خشبة المسرح. وذهبتْ لاستشارة الطبيب وبدأتْ سلسلةً من الفحوصات كان لها أول ولم يكن لها آخر. وفي النهاية اختلى الطبيب المختص بالزوج وأنبأه بأن زوجته مصابة بسرطان العظام.. (يتهدج صوته) سرطان العظام في مراحله الأخيرة. ودارت الأرضُ بالزوج، واسودّت الدنيا في عينيه، وبدا الأمر

محيِّراً له.. لماذا تصاب هذه المرأة الرقيقة الحنون بسرطان العظام؟! وافترسه عذابٌ مقيم لا يفارقه ليلاً ولا نهاراً حزناً على زوجته المنكوبة. لكنه ظلّ يقف أمامها على خشبة المسرح كلَّ ليلة ووجهُه يفيض بشاشةً، يشاركها الحوارَ عن السعادة التي يدَّخِرها لهما المستقبل.. المستقبل الواعد المشرق كما تقول المسرحية.. وهو يعلم أن رصيدها من الحياة لا يتجاوز الشهور وربما الأسابيع. ولكن ما حيلته؟ هكذا تتطلب منه المسرحية التي يمثلها.. وهي مهنته التي يأكل منها الخبز.. (وهو يهز رأسه) ما علينا.. أخيراً حلّ اليوم الذي عجزت فيه الرفيقة عن الوقوف على خشبة المسرح.. نَهَشَتْها الآمٌ لا تجدي معها المسكِّناتُ. وما كان أقساها من آلام.. (بصوت متهدج) كانت تقف على خشبة المسرح كزهرة ذابلة صُوِّح عودها، تتلوّى ألماً وتكتم آهات جريحة. لكنها ظلت مصرّةً على إمتاع جمهورها. ثم انهارت مقاومتها أخيراً ولزمت الفراش. (يصمت طويلاً وأنظاره سارحة في الفضاء ثم يستأنف كلامه بلهجة مرتعشة) وأخذت الزوجة تذوب كالشمعة. وتوقع الزوج أن تنطفئ في أية لحظة. ومع ذلك واصل إمتاع المشاهدين بأدائه. بل كان في بعض أدواره الكوميدية يتفنّن في إضحاكهم. وقد يطلق قهقهات كالتي سمعتموها الآن. (يصمت لحظة ثم يستأنف الكلام بصوت مرتجف) وفي صباح هذا اليوم أيها السادة غيّب القمر تلك الرفيقة الحبيبة، ولم يتبق أمامه سوى الوحدة والأحزان. ومع ذلك حضر ذلك المساء إلى المسرح ليُمتع المشاهدين ويُطلق القهقهات المرحة.. (يطلق قهقهات متصلة لبضعة دقائق ثم تنقلب القهقهات إلى شهقات يستسلم على أثرها إلى نحيب أليم. يسود الصالة صمتٌ مطبق، تُسمع شهقاتُ بكاء صادرة من المشاهدات. يظهر فجأة المؤلف على المسرح).

المؤلف: (يخاطب الممثل بلهجة غاضبة) مهلاً... مهلاً أيها الزميل، لقد تجاوزت دورك. (يلتفت إلى المشاهدين) أنا آسف أيتها السيدات وأيها السادة، فأنا مؤلف هذه المسرحية ومُخرجها ولم يكن مخطَّطاً لها أن تبكيكم بل أن تضحككم.

الممثل: (في اعتذار) نحن حاولنا ذلك لكنهم اضطرونا إلى هذا، فهم يتصورون أنّ مهنتنا يسيرة.

المؤلف: هذا أمر طبيعي، وينبغي ألا نتوقع ممن يجهل أسرار هذه المهنة أن يُدرك مشقّاتها. نحن الفنّانين شموعٌ تحترق، كما يقول المثل. ولا يدرك هذه الحقيقة إلا من خبر مهنتنا. نحن نحترق لنقدم للجمهور غذاءهم الروحي الذي يفوق في أهميته غذاءهم المادي.

متفرج: (في تهكم) وأين الغذاء الروحي في القهقهات التي سمعناها؟

متفرج: نحن لم نسمع أيَّ حوار في المسرحية. فهلا أخبرتنا أين المسرحية؟

المؤلف: المسرحية هي ما كان يقدّمه لكم الممثلون.

متفرج: فهي مسرحية صامتة إذن.. هي مهزلة.

المؤلف: (بلهجة شبه غاضبة) مَنْ لم يفهم هذه المسرحية ليس مؤهّلاً للحُكْم على قيمتها.

متفرج: هذه سخرية بعقولنا وليست مسرحية.

متفرج: لقد دفعنا نقوداً لنحضر مسرحية نفهمها.

المؤلف: نحن لسنا مطالبين بأن يَفْهم فنُّنا جميعُ المشاهدين.

متفرج: وأين هو المشاهِد الذي يفهم مسرحيتك أيها المؤلف؟

متفرج: موجود أيها الأخ.. وهي مسرحية رائعة فعلاً.

(يلتفت بعض المشاهدين إلى المتكلم بفضول).

المؤلف: (وهو ينظر بسرور وانتصار إلى المتكلم) ها قد وجدت المسرحيةُ مَنْ يقدّر قيمتها حقَّ قَدْرِها.

متفرج: (بسخرية) ومن قال إنّ الأخ قد فهم هذه المسخرة حقيقةً؟! لعلَّه مِنْ أعوانك.

المتفرج: (بلهجة متعالية) أنا ناقد أيها الإخوان ولا علاقة لي بالمؤلف. وأؤكد لكم أنكم تسيئون إلى هذه المسرحية الرائعة وتبخسون قيمتها.

متفرج: (للناقد) فهل تتفضل فتُفْهِمنا أيها الناقد أين الفنّ في هذه القهقهات السخيفة؟

الناقد: هناك فن عظيم في هذه المسرحية المبتكرة.. فنّ لا يمكن أن يدركه المتفرجُ الاعتيادي...

متفرج: نحن جئنا إلى المسرح لنستمع إلى شيء نفهمه.. شيء يُمتع عقولنا وأفئدتنا.. ألستم تقولون إنّ المسرح مدرسة؟

الناقد: طبعاً المسرح مدرسة.. مدرسة مهمتُها عَرْضُ المشكلات الاجتماعية والإنسانية، وتقديمُ غذاءٍ عقلي وروحي للجمهور...

متفرج: إذن كيف يتحقق ذلك إذا لم تُفهم المسرحية؟!

الناقد: وما ذنب المؤلف إذا لم يكن الجمهور في المستوى المطلوب؟!

متفرج: (بتهكم) نحن لسنا في المستوى المطلوب أيها الناقد.. فهلا أفهمتنا مغزى مسرحية القهقهة هذه؟!

الناقد: ليس هذا من مسؤوليتي.. كل مشاهد مسؤول عن فهم قيمة العمل الفني. هذا الأمر متروك لثقافته ولوعيه الفني.

متفرج: فمن المسؤول إذَنْ عن إفهامنا؟

الناقد: أنتم مسؤولون عن ذلك. فليفهمها كلٌّ منكم بطريقته الخاصة.

متفرج: وماذا تفهم؟! هل فيها كلام لكي نفهمه؟! إنها مسخرة!

الناقد: وأنا أؤكد لكم كناقد أنها مسرحية رائعة. أمّا مَنْ يستعصي عليه فهمها فالعيب فيه لا في المسرحية.. العيب في جهله. إنها ابتكار في عالم المسرح، وإني أهنّئ المؤلف عليها.

المؤلف: (وهو يحني رأسه مسروراً) شكراً أيها الزميل الناقد ويكفيني تقييمك للمسرحية على هذا النحو.

متفرج: (بغضب) أنتما تتبادلان المديح وتتقاذفوننا بأرجلكم كالكرة. (متهجماً إلى الناقد) ثم بأيّ حقّ تحكم أيها الناقد على عقول الجمهور بالجهل لمجرد أنهم لا يفهمون ألغازاً؟ لماذا لا يكون العيب فيك أنت فتكون مدّعياً ولم تفهم منها شيئاً مثلنا في الحقيقة؟

(صيحات في الصالة «فعلاً... فعلاً»)

الناقد: (بلهجة متعالية) أرجوكم أيها الاخوان.. احفظوا مقامَ الآخرين. أنا ناقد وصنعتي هي الحكم على الأعمال الفنية. ويجب أن تعلموا أنّ من طبيعة الفن الراقي وسماته أن يكون عصيّاً على فهم الناس العاديين، فثقّفوا أنفسكم وتعالوا إلى المسرح.

متفرج: (بغضب) ما تقوله أيها الناقد ليس سوى ادّعاء وكلام فارغ. فليس المفروض أن يكون الفنّ أحاجي وألغازاً.

الناقد: وماذا يَفهم أمثالُك في الفن الراقي؟ بل ما ذنب المؤلف إنْ لم تكونوا مؤهّلين لفهم الفن الراقي؟

المؤلف: (للناقد) صَدَقْتَ أيها الزميل. (متجهاً إلى المشاهدين) أنا لست مسؤولاً عمن ليس مؤهلاً لفهم الفن الراقي.

متفرج: (في سخرية) كان الأَوْلى بك أيها المؤلف أن تدعو الناقد وحده لمشاهدة مسرحيتك ما دام لا يفهمها سواكما.

متفرج: ما لنا وهذه المهاترة يا إخوان؟ ستضيع علينا المسرحية.

متفرج: وماذا سيضيع علينا؟ هل هناك شيء سيضيع علينا سوى هذه القهقهات السخيفة؟

متفرج: طبعاً ستضيع علينا فلوسنا.

متفرج: (بغضب) نحن نطالِبُ بنقودنا. جئنا لمشاهدة مسرحية نفهمها لا قهقهة.

(صيحة في الصالة وصيحات غاضبة)

المؤلف: (محاولاً إسكاتَ الضجة في الصالة) أيها السادة.. أيها السادة.. إهدأوا من فضلكم.. الهدوء رجاءً. (يعود الهدوء إلى الصالة تدريجياً. يتكلم المؤلف بلهجة رصينة) ما دمتم مصرّين على الغضّ من قَدْر هذه المسرحية فإنّي أراني مضطراً إلى الكشف عن مغزاها العميق.. وإن كنّا نحن الفنانين غير مطالبين بتقديم تفسير لأعمالنا الفنية. فالعمل الفني خلق خاص بذاته، ولكل امرئ أن يفهمه بحسب ما يهيِّئ له ذوقه وثقافته، كما يقول الزميل الناقد المحترم. ولكن قبل أن أقدّم لكم تفسيراً لهذه المسرحيّة اسمحوا لي أن ألقي عليكم سؤالاً وأرجو أن أتلقّى جواباً صريحاً.. مَنْ منكم سعيد في حياته وفي غير حاجة إلى الترفيه؟.

(الصمت يعمّ الصالة. بعض المشاهدين يتلفتون حواليهم. تمضي دقائق. أحد المشاهدين يرفع يده).

المؤلف: (وعيناه تتجولان في وجوه جمهور الصالة) أخيراً وجدنا بينكم أيها السادة شخصاً سعيداً في غنى عن الترفيه. لكنه شخص واحد فقط. أنتم الباقون في حاجة إلى الترفيه إذن. أنتم تعساء وهناك ضرورة للتخفيف من تعاستكم.

متفرج: (مقاطعاً) لا تبالغ أيها المؤلف ولا تحكم على الظواهر. فقد لا يفضّل المرء الكشف عن أمره دفعاً للحسد.

(ضحك في الصالة)

متفرج: (متجهاً إلى المشاهد الذي رفع يده) وهل أنت سعيد حقاً أيُّها الأخ بالرغم من كل المصائب والمآسي التي تواجهنا صباحاً ومساء؟

متفرج: (بلهجة مغمومة) وأين السعادة في الحياة الدنيا؟

متفرج: (بلهجة هازئة) لا تنسوا يا إخوان المثَلَ القائل: «الإنسان سعيد ما دام لا يراجع حاكماً أو حكيماً».

متفرج: (بتهكم) يا اخوان.. لا داعي للمبالغات. مجتمعنا عامر بالسعداء خصوصاً أولئك الذين ينعمون بامتصاص دماء الآخرين.

(يشتد اللغط في الصالة ويختلط الجدل بين المشاهدين).

المؤلف: أيها السادة.. هدوءاً من فضلكم.. واسمحوا لي بالتحدث إليكم.. (يهدأ الضجيج في الصالة. يستمر المؤلف بلهجة رصينة) من الواضح أنّ غالبيتكم من التعساء. وهذا أمر لا يدهشني، فهذا هو حال مجتمعنا. ونحن أهل الفن مسؤولون عن التخفيف عن تعاسة الناس. ومما لا شك فيه أن تعاسة الناس ناجمة عن كونهم لا يعرفون كيف يضحكون في أوقات الأزمات والمصاعب.

متفرج: (بتهكم) هل حضرنا إلى هنا لنستمتع بمسرحية نافعة أم لنستمتع إلى محاضرة تخديريّة!؟

متفرج: أيها الاخوان، من غير المعقول أن تُحرجوا المؤلف إلى هذه الدرجة. مَنْ قال إنّ لديه عصاً سحرية يستطيع أن يحلّ بها جميع مشاكلهم وينقذكم من تعاستكم؟!

متفرج: (بلهجة عدائية) بالضبط، أنت تحاول تخديرنا وصرفنا عن واقعنا المرير أيها المؤلف.

متفرج: (بتهكم) هلاّ بصرّتنا أيها المؤلف كيف سيمكننا الضحكُ على الحياة من حلّ مشكلاتنا والتخفيف من تعاستنا؟

متفرج: أنا عاطل عن العمل منذ تخرجتُ من الجامعة قبل أكثر من عام. فهل يقودني الضحك على الحياة إلى إيجاد عمل أيها المؤلف؟

متفرج: أنا مهدَّد بالطرد من مسكني والعيش مع عائلتي على الرصيف. فهل سينفعني الضحك على الحياة في العثور على سكن مناسب أيها المؤلف؟

متفرج: أمنيتي أن أتزوج، ولكنْ ما من أُسْرة ترضى بمصاهرتي وأنا على البلاط. فهل سيحقّق لي الضحك على الحياة أمنيتي هذه أيها المؤلف؟

متفرج: لقد حُكم على ولدي بالسجن خمسة أعوام بتهمة سياسية جائرة. فهل سيعنيني الضحك على الحياة على إطلاق سراحه أيها المؤلف؟

متفرج: أنا فقدتُ ولدي الوحيد في الحرب. فهل سيعيده إليَّ الضحك على الحياة أيها المؤلف؟

متفرج: يا إخوان، ارحموا المؤلف وارحمونا معه. هل حضرنا إلى هنا لنشاهد مسرحية نروّح بها عن أنفسنا أم لنزداد غماً؟.

(يعلو اللغط في الصالة)

المؤلف: (محاولاً إسكاتَ اللغط) أيها السادة.. هدوءاً أيها السادة. لو استمر كل واحد منكم يعدّد همومه لاضطررتم إلى البقاء هنا حتى الصباح. المهم أنني برهنت لكم على وجهة نظري وهي أن حياتكم قاسية، وأنكم ـ شئتم أم أبيتم ـ في حاجة إلى ضحك.. الضحك الذي بات عملة نادرة في حياتنا. ومسرحيتي هذه استهدفت هذا الغرض. وهي لا تعتمد على الكلام في الإضحاك؛ فالناس قد ملّوا الكلام وملّوا «النكت» السخيفة.. ملّوا الكلام المكرّر بجميع أشكاله وألوانه.. ملّوا كلام السياسيين المعسول المليء بالأكاذيب.. ملّوا كلام أهل الفكر البعيدين عن واقعهم.. ملّوا حتى كلام أهل الفن المغرق في الخيال والرومانسية والذي يخدّر مشاعرهم. ثم إنه ليس من الحكمة لأيّ واحدٍ منّا أن يتحدث بما يجول في فكره دائماً، فقد يوقعه ذلك في المتاعب، وقد يكون الصمتُ أحياناً أبلغ من الكلام. لهذه الأسباب كلها اقتنعت أن خير ما أفعله هو البحث عن وسيلة للتخفيف من مآسي حياتنا غير الكلام. وأنا أعترف أن مسرحيتي هذه مسرحية غريبة نوعاً ما. ولكنها ليست أكثر غرابة أو غموضاً من مسرحياتٍ ما يُسمّى بمسرح اللامعقول. ولا بد أنكم سمعتم أو قرأتم مسرحيات بيكيت ويونسكو وأداموف ومَنْ لفَّ لفّهم من كتّاب مسرح الطليعة.. فلا لوم عليَّ ولا تثريب. ثم أليس هدف الفنّ طرح المعاني المألوفة في قوالب غير مألوفة؟ إنّ هذه المسرحية أيها السادة تمثّل شكلاً جديداً من أشكال الرفض لواقعنا الأليم. وهي تنطوي على مغزيين: المغزى الأول هو الضحك من حياتنا، وأنتم لا شك تتفقون معي على أن المشكلات التي عرضها السادة هي من النوع الذي يثير الضحك، ولا يجوز أن توجد في مجتمع سويّ، فالمجتمع السويّ هو الذي يهيِّئ الفرص لأفراده لكي يعيشوا سعداء.. أو على الأقل لكي لا يعانوا الهموم المادية السخيفة التي تفسد عليهم الاستمتاع بالحياة. لو كانت بواعث تعاستكم ترجع إلى أسباب ميتافيزيقية تنبثق من صراع الإنسان مع نفسه ومع القدر المجهول، لوقفنا حيالها عاجزين، أمَا والأمرُ كما رأيتموه فهو وضيع مضحك حقاً. نعم أيها السادة. من واجبنا أن نضحك من دنيانا هذه التي تعجّ بالمضحكات. ورحم الله شاعرنا حين قال: «وكم في الحياة من المضحكات... ولكنه ضحك كالبكا». (ينطلق في سلسلة من القهقهات ثم يلتفت إلى الممثلين قائلاً: «اضحكوا.. اضحكوا..» فيندفع الممثلون في قهقهات طويلة. يستأنف المؤلف الكلام بعد دقائق بلهجة رصينة). وأما المغزى الثاني للمسرحية، فهو محاولة التخفيف من تعاستكم عن طريق دغدغتكم.. أعني إثارة ضحككم بالقوّة أو على الأصح بالعدوى. فالضحك يولّد الضحك، وهذا ما حاول زملائي الممثلون أن يفعلوه، ويبدو أنهم فشلوا فيه، ولعل مرجع فشلهم إلى أن أحزانكم كثيفة جداً. ولكنْ صدّقوني أيها السادة.. لا بد أن تمنحوا أنفسكم فرصة وتضحكوا، فالضحك رياضة مهمة تعين الإنسان على مواصلة حياته اليائسة التي قد يضيق بها ذرعاً.. والآن اسمحوا لزملائي الممثلين أن يعيدوا الكرّة، وأرجوكم أن تتيحوا الفرصة لهم ليواصلوا أداءهم حتى نهاية المسرحية... حينئذ عبّروا عن رأيكم فيها بالأسلوب الذي ترتأونه... (وهو يضحك) حتى ولو برجم الممثلين بالبيض الفاسد! (يلتفت إلى الممثلين الذين يصطفون وراءه كالتماثيل ويخاطبهم قائلاً: «أيها الزملاء... باشروا عملكم». يتحرك الممثلون كالآلات نحو كراسيهم وينحطون عليها منتصبي القامات. يتوارى المؤلف خارج المسرح. يتطلع الممثلون إلى الرسوم المعلقة على الجدران لدقائق ثم يتبادلون نظرات ساخرة. يتنحنحون للحظات بصوت عال ثم تنطلق فجأة قهقهاتهم الطويلة الممدودة. يسود صمت مطبق. تستمر قهقهاتهم لدقائق، والصمت يهيمن على الصالة).

متفرج: إلى متى ستستمر هذه القهقهات؟

متفرج: وإلى متى ننتظر أن يُضحكنا الممثلون؟

متفرج: بل إلى متى نبقى صابرين وهم يضحكون علينا؟

متفرج: هل يصدِّق هذا المؤلف المعتوه أن هذه القهقهات ستنسينا متاعبنا؟

متفرج: أيها المؤلف المرائي: أين هربت وتركت ممثليك يضحكون علينا؟

متفرج: يا اخوان.. الذنب ليس ذنب المؤلف أو الممثلين بل ذنبنا نحن الذين صبرنا عليهم حتى الآن.

متفرج: أظن أن الوقت قد حان يا إخوان لنعبّر عن رأينا في هذه المسخرة.

(صيحات من الصالة: «فعلاً.. فعلاً..». تبدأ كرات صغيرة من الورق وأشياء أخرى تتطاير في الهواء وتتساقط على المسرح).

ممثل: أيها السادة.. صبركم.. نحن لم نستنفد وقتنا بعد.

متفرج: بل استنفدتم وقتكم وزيادة.

ممثل: اصبروا علينا أيها السادة...

متفرج: صبرنا حتى مللنا الصبر.. إلى متى نبقى صابرين.

(الكرات تستمر في التطاير والسقوط على المسرح والممثلين).

متفرج: (وهو يقف مخاطباً المشاهدين) يا اخواننا.. انتهت المهزلة. لقد شبعوا ضحكاً علينا.

(صيحات من الصالة: «فعلاً.. فعلاً». يبدأ المشاهدون بالنهوض ومغادرة الصالة وهم يتلفظون بعبارات الاستنكار والاحتجاج. تهبط الستارة ببطء في حين يتصايح الممثلون: «انتظروا أيها السادة.. نحن لم نستنفد وقتنا بعد.. انتظروا.. المسرحية لم تنته بعد.. لا تغادروا مقاعدكم.. انتظروا»)

ستار الختام

الولايات المتحدة الأميركية

قصائد دون الصّوت

محمد ميلاد

قربَ البنابيع الضّريرة

ودفنتُ الصّمتَ في الصّمت
لكي أحرسَه من لَغَط الظلمة والنّور
فلا يَمْلأُهُ أوّلُ من هبَّ
ولا يَهْذي سُدًى
في كلّ قفر.

العَرَاءْ
لا العَزَاءْ

لا أرى النّملةَ إلاّ رَاعَني
مثل مَلْدُوغٍ
دبيبٌ قاتل
في دمي.
لا أرى الزّهرةَ
إلاّ اخْتَلَسَتْها أوّلُ الأسْطُرِ
لو أنّيَ كالزهرة
غنّيتُ بأقصى الصّمت
كي تلمع في الغصن
عيونٌ كابيَه.

طافح حتّى الصَّمَم
أعْزَل حتّى الخَرَسْ

وإذا لم تَخْتَدِعْني زرقةُ النيران
هل كنتُ تعرّفتُ على الأشجار
أو أطْرَبَني الجَنْدَلُ
هل كَذَّبَتِ العينُ اليديْنْ.

هكذا قربَ الينابيع الضّريرة
فجأةً يَعْذُبُ سُمُّ الاختلاجات
ويستوحش في الوجه البياض

لا شيء يدركني

سأنزع من ساعتي اليدويّةِ
هذه العقاربْ
وأمشي على مُهْلَتي
إلى حيثُ لا يترقّبني أَحَدٌ
ستهرول خلفي الدقائق
والسنواتُ
وأحلاميَ المستحيلة
لا شيء يُدركني
سوى هذه الشجَرة.

السَّدَنة

يتشمّمون روائحَ الأمطار
في خَفَقَانِ أدنى عشبة،
في الدّمع،
في دَرَنِ الثّيابْ
يتسَمَّعُونَ إلى السّرابْ
لا غيمَ يَرْعُدُ
لا بريقْ
لكنّهم سُعَدَاء
يُنْسيهِمْ رنينَ الماء
صوتُ الرّعد في التصفيقْ/

سجن

القَلَمُ المجروح
لَمْرْآهُ كانَتْ تَنْدَكُّ الجدرانْ
لماذا الآن
لايُرْعِدُ قُتْمَةَ ظِلٍّ
في هذا الرُّكْنْ
أ إلى هذا الحدّ قد اتَّسَعَ السِّجْنْ؟

ليل

كلّما أدْنَتْكَ من نجمتكَ الأولى
سماءٌ
نَأَتِ الأمْدَاءُ أَبْعَدْ
ليس تُدْنيكَ خُطًى
مثل الأنينْ.
ما تبقّى
خَفْقَةٌ
تَلْمَعُ في هذا الذّبول
لِتَرُدَّ اللحظةَ البِكْرَ
ولا يَهْديكَ ضَوءٌ
غيرُ هذي العتماتِ الشاردة.

الفراشاتُ فَقَطْ
آخرُ ما يَبْقَى لِطَعْنِ النَّارْ
إنّما النّارُ هنا
لَيْسَتِ النَّارْ.

تونس